

ابن تيمية ومعالم طبية

■ د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف(*)
www.alabdulltif.net
@dralabdullatif

عَـرَض لابن تيمية بعـض الألم، فقال لـه الطبيب: أضرّ ما عليك الـكلام في العلم والفكـر فيه، والتوجـه والذكر. فقال ابن تيمية: ألسـتم تزعمـون أن النفس إذا قويتْ وفرحـتْ أوجب فرحها لها قوة تعين بهـا الطبيعة على دفع المعارض، فإنه عدوها، فإذا قويتْ عليه قهرتُه. فقال له الطبيب: بلى.

فقال: إذا اشتغلتْ نفسي بالتوجه والذكر والكلام في العلم، وظفرتْ بما يشكل عليها منه، فرحتُ به وقويتُ، فأوجب ذلك دفع المعارض[1].

(*) أستاذ مشارك سابق في قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية – الرياض.
(١) المستدرك على مجموع الفتاوى ٣/١٣٩.

وشـــيخ الإسلام ابن تيمية وإن لم يبسط الكلام في الطبّ ومســـائله - حسب اطّلاعي - كما فعل تلميذاه: ابن القيم في «الهدي» وابن مفلح في «الآداب الشـــرعية»؛ لكنه حرر معالم مهمة وقواعد منهجية جليلة في ذلك العلم، كما في الســـطور التالية:

- لا يخفى أن ابن تيمية صاحب اطّلاع واسع على جميع المعارف، واســـتقراء وتتبّع عجيب لأنـــواع الفنون، حتى قالوا عنـــه: كأن العلـــوم بين عينيه، وقد قـــرر - في غير موطن - أن مصادر المعارف والعلوم تُنـــال بثلاثة أمور: الحسّ والعقل والوحـــي، فالعلم قد يكون تارة عن طريق الحسّ وهو الفطرة والبصر والمشاهدة، وهذا يشترك فيه جميع الناس، وقد يكون تـــارة عن طريق العقل وهو النظر القياس، وهذا يختص بأهل العلم والاســـتدلال، وأشـــرف وأخصّ من هذا وذاك: الوحي المنـــزل من عند الله على نبيه ﷺ وهو الســـمع والخبر، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًـــا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَـــابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَـــاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢][(١)].

وقـــد بيّن ابن تيمية أن الطب تجربات وقياســـات، فقال: «الطب تجربات وقياسات، وأهله منهم من تغلب عليه التجربة، ومنهم مـــن يغلب عليه القيـــاس، والقياس أصلـــه التجربة، والتجربة لا بد فيها من قياس.. فلا بد من الحسّـــيات التي هـــي الأصل ليعتبر بها، والحـــسّ إن لم يكن مع صاحبه عقل وإلا فقد يغلط»[(٢)].

يُلحظ - ابتداءً - أن ابن تيمية لا تأســـره كلمة، ولا يقيده مصطلح، فمثلاً: الحسّ يسميه - في مواطن أخرى - تجارب وفطرة وبصراً، كما أن العقل يسمّيه النظر والتجربة والاعتبار، وهذا يكشف سعة عقل هذا الإمام الفذ ورحابة أفقه.

وقد قال - رحمه الله - : «إذا اتسعت العقول وتصوراتها اتسعت عباراتها، وإذا ضاقت العقول والتصورات بقي صاحبها كأنه أسير العقل واللسان»[(٣)].

وأمـــا بيان مقالته المتينة عن الطب، فإن الطب - عنده - مدارس، فمدرسة تغلّب الحسّ والمشاهدة والتجربة، ومدرسة تغلّب النظر والقياس، وكـــذا العكس، فأحدهما يكمل الآخر، فقوله: «القياس أصله التجربة» يعني أن التجارب والبدهيات والحس هي أصل القياس والنظريات والعقل، فالتجربة أصل في علمنا بصحة القياس[(٤)].

وأشـــار - في موطن آخر - إلـــى أن التجارب قد تحصل بالنظـــر والاعتبار والتدبّر، وقد تحصل بالحسّ والمشـــاهدة، فهي معقولات محسوسات[(٥)].

❊ مع أن الطبّ من العلوم العقلية الحسّـــية، إلا أن شيخ الإســـلام يقرر أن أهل الملل أكمل من غيرهم في هذا العلم - وشبهه كالصناعة والتجارة... - ثم إن أهل الإسلام هم أكمل وأعلـــم من أهل الكتاب في الطب ونحـــوه، ويعلل ذلك قائلاً: «فإن علوم المتفاســـفة من علوم المنطـــق والطبيعة والهيئة[(٦)]، وعلوم فارس والروم، لما صارت إلى المسلمين هذّبوها ونقّحوها لكمال عقولهم، وحسن ألسنتهم، وكان كلامهم فيها أتمّ وأجمع وأبين، وهذا يعرفه كل عاقل وفاضل»[(٧)].

ولما تحدث عن فضل أمة محمد ﷺ كان مما قاله: «فأما العلوم فهم أحذق في جميع العلوم من جميع الأمم، حتى العلوم التي ليســـت بنبوية ولا أخروية، كعلم الطبّ مثلاً، والحساب، ونحو ذلك، هم أحذق فيها من الأمتـــين [اليهود والنصارى]، ومصنفاتهم فيها أكمل من مصنفات الأمتين، بل هم أحســـن علماً وبياناً لها من الأوائل[(٨)] الذين كانت هي غاية علمهم.

وقد يكون الحاذق فيها من هو عند المسلمين منبوذ بنفاق وإلحـــاد[(٩)] ولا قدر له عندهم، لكـــن يحصل له بما يعلمه من المســـلمين من العقل والبيان ما أعانه علـــى الحذق في تلك العلوم، فصار حثالة المسلمين أحسن معرفة وبياناً لهذه العلوم من أولئك المتقدمين»[(١٠)].

بـــل نقل ابن تيميـــة اعتراف الأطباء الأوائـــل بأن الطبّ بالأدوية الإلهية كالدعاء والصدقة والرقية، أشـــرف وأعظم

(١) ينظر: التدمرية ص ٥٠٠، الجواب الصحيح ٢/ ٤، جامع المسائل ٥/ ١٩٣، الفتاوى ١٣/ ٧٥.
(٢) الفرقان بين الحق والبطلان، ت: العصلاني، ص ٣٤٩ = باختصار.
(٣) الردّ على المنطقيين ص ١٦٦.

(٤) ينظر: الدرء ١/ ٨٧.
(٥) ينظر: الرد على المنطقيين ص ٢٩، ٩٣، ٩٨.
(٦) علم الهيئة: علم الفلك.
(٧) الفتاوى ٤/ ٢١٠، ٢١١.
(٨) لعل مراده بالأوائل: أطباء اليونان كبقراط وجالينوس.
(٩) وكأنه يشير إلى أمثال ابن سينا صاحب «القانون» وأبي بكر الرازي صاحب «الحاوي» في الطب، ينظر: الفتاوى ٤/ ١١٤.
(١٠) الجواب الصحيح ٤/ ١٠٤، ١٠٥.

وأنفـــع من طبّهم، فبقراط يقول: نســـبة طبنا إلى طبّ أرباب الهياكل كنسبة طب العجائز إلى طبنا[1].

– إن روح الاســـتعلاء بالإيمان عند ابن تيمية راســـخة رســـوخ الجبال، والثقة التامة بهذا الدين وأهله كالنَفَس لديه، فالأمة المحمدية لها خيريـــة مطلقة حتى في العلوم الدنيوية كالطب مثلاً، وأن «حثالة» المسلمين أحسن معرفة بالطب من الأمم السابقة.

❊ جوّز ابنُ تيمية الرجوعَ إلى الكفار في العلوم الدنيوية، وإباحة الانتفاع بما عندهم من الطب والحســـاب ونحوهما، فقال: «مســـائل الطب والحساب المحضّ.. غايته انتفاع بآثار الكفـــار والمنافقين في أمـــور الدنيا، فهذا جائـــز، كما يجوز الســـكنى في ديارهم، ولبس ثيابهم وســـلاحهم، وكما تجوز معاملتهـــم على الأرض – ثم ســـاق أدلته على ذلك، ثم قال – فإن المشـــركين وأهل الكتاب فيهم المؤتمَن.. ولهذا جاز ائتمان أحدهم على المال، وجاز أن يســـتطبّ المســـلمُ الكافرَ إذا كان ثقة...»[2].

وقرره في موطن آخر فقال: «إذا كان اليهودي والنصراني خبيراً بالطب ثقة عند الإنسان، جاز له أن يستطبه، كما يجوز له أن يودعه المال...»[3].

فقيّد – رحمه الله – جواز الانتفاع بأهل الطب منهم بأن يكون عارفاً لا جاهلاً، وأن يكون ثقة لا خائناً..

فالحكمة ضالة المؤمن أنّى وجدها فهو أحق بها، فلا مانع مـــن الانتفاع بحكماء الطب ما داموا ثقات، كما أنه قرر جواز اســـتعمال القوس الفارسية – فليس تشـــبهاً بالكفار – وأنها أنفع من القوس العربية وأجدى وأنكى في قهر العدو وقتاله، وأبلغ في تحقيق القوة المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُمْ مِّن قُوَّةٍ﴾ [**الأنفال**: ٦٠][4].

– وأما عن نظرة ابن تيمية للتداوي، فمع أنه قرر وسطية أهل الســـنة في الأســـباب بين الغلاة الفلاسفة، وبين الجفاة الجبرية؛ إلا أنه غلب عليه الردّ والانتقاد لمن بالغ في التداوي وأفرط فيه، فقد حكـــى أن التداوي – بالجملة – ليس واجباً عنـــد جمهور العلماء... بل قال – رحمه الله –: «لســـت أعلم سالفاً أوجب التداوي، وإنما كان كثير من أهل الفضل والمعرفة يفضّل تركه اختياراً لما اختاره الله.. وهذا المنصوص عن أحمد، وإن كان من أصحابه من يوجبه، ومنهم من يستحبه..»[5].

وقرر أن التداوي ليس بضرورة كأكل الميتة عند الاضطرار، وغلّـــظ مقالة أطباء جوّزوا التـــداوي بالمحرمات؛ فإن الله لم يجعل شفاء هذه الأمة المرحومة فيما حُرّم عليها[6].

وبـــيّن أن التداوي ليس ســـبباً مطرداً ولا مســـتيقناً في حصول الشـــفاء، كما يتوهمه الكثير مـــن الناس، فقال: «إن الدواء لا يســـتيقن، بل وفي كثيـــر من الأمراض لا يظن دفعه للمرض، إذ لو اطرد ذلك لم يمت أحد»[7].

وقـــال أيضـــاً: «إن كثيراً من المرضـــى، أو أكثر المرضى، يشفون بلا تداوٍ، لا سيما في أهل الوبر والقرى والساكنين في نواحي الأرض يشفيهم الله بما خلق فيهم من القوى المطبوعة في أبدانهم الرافعة للمرض، وفيما ييســـره لهم من نوع حركة وعمل، أو دعوة مستجابة، أو رقية نافعة، أو قوة للقلب، وحسن التوكل، إلى غير ذلك من الأسباب الكثيرة غير الدواء»[8].

وشـــنّع على من قال: إنه لا يبرأ من هذا المرض إلا بهذا الدواء المعيّن، فقال: «وأمـــا قول الأطباء: إنه لا يبرأ من هذا المـــرض إلا بهذا الدواء المعيّن، فهـــذا قول جاهل لا يقوله من يعلم الطب أصلاً، فضلاً عمن يعرف الله ورسوله، فإن الشفاء ليس في سبب معيّن يوجبه في العادة، كما للشبع سبب معيّن يوجبه، إذ من الناس من يشفيه الله بلا دواء، ومنهم من يشفيه الله بالأدوية... إلخ»[9].

وأخيراً؛ «فإن القلب متى اتصل برب العالمين، خالق الداء والـــدواء، ومدبّر الطبيعة ومصرفها على ما يشـــاء؛ كانت له أدوية أخرى غير الأدوية التي يعانيها القلب البعيد من المعرض عنه»[10].

والله الموفق لا ربَّ سواه، وهو الشافي لا شفاءَ غيره.

---

(١) ينظر: مجموع الفتاوى ٢٤/٢٦٨، ١٩/٣٢.

(٢) الفتاوى ٤/ ١١٤ = باختصار.

(٣) مختصر الفتاوى المصرية ص ٥١٦، وانظر: بدائع الفوائد لابن القيم ٣/٢٠٨.

(٤) ينظر: الفتاوى ١٧/٤٨٨، ١٩/٦٠.

(٥) الفتاوى ٢١/٥٦٤.

(٦) ينظر: الفتاوى ٢٤/٢٦٦ – ٢٧٤.

(٧) الفتاوى ٢١/٥٦٥.

(٨) الفتاوى ٢١/٥٦٣.

(٩) الفتاوى ٢٤/٢٧٤.

(١٠) زاد المعاد ٤/١٢.